Katherine Blouin (éd.), *The Nile Delta: Histories from Antiquity to the Modern Period*

Cambridge University Press,
2024, xxvi-648 p.,
ISBN : 9781009175166

Keywords: Delta, Egypt, History, Nile, multidisciplinarity

Mots-clés : Delta, Égypte, histoire, Nil, multidisciplinarité

الكلمات مفتاحية: الدلتا، مصر، التاريخ، نهر النيل، تجاور العلوم

هذا الكتاب هامٌّ كل الأهمية، وقراءته ضرورة لكل مُهتمة ومُهتمّ بجوانب مختلفة من تاريخ وحاضر مصر، فهو رائد غير مسبوق في بابه (التأريخ لدلتا النيل في تاريخها الممتد بعين ناقدة تناقش الأدبيات السابقة وتواجهها بأوجه القصور)، وهو نتاج عمل مجموعة كبيرة من المؤلفات والمؤلفين، بعضهم متخصص في التاريخ وبعضهم في علوم الآثار وبعضهم في الجغرافيا وغيرها من حقول المعارف الاجتماعية والإنسانيات، ووراءه رؤية قيمية سياسية ترفض الإذعان للمنطق الاستعماري و/ أو السياحي الذي طالما هيمن على الكتابة عن هذه المنطقة. وأخيرًا هو هام نظرًا إلى أهمية مقدمته التي وضعتها مُحررته فكانت وكأنها مانيفستو يُعلن ضرورة إعادة النظر في تاريخ مصر عبر التعامل بجدّية مع دلتا النيل كفضاء عانى من إهمال المؤرخين والمفكرين وحان وقت تجديد الهمم ونفض التكاسل للبحث فيه.

في عرضي هذا، سأركز على هذه المقدمة المُلهمة، وسأستعرض بإيجاز بعض فصوله السبعة عشر الأخرى. والقصد من العرض هو تقديمه من زاوية سؤال: كيف يقرأ تاريخَ دلتا النيل المُمتد وما الدروس المنهجية والمعرفية المُستفادة منه بما يُمكننا من السير على خطاه في دراسة هذه المنطقة كوحدة مكانية لها مساحة تاريخية تستحق أن تدرس وأن تقدَّم للقراء. ولأروي ظمأ القراء مُقدمًا قبل العرض، أنقل هنا أولًا اقتباسًا من المقدمة، ولنفكر فيه معًا من البداية:

> «ليس هذا الكتاب مرجعًا شاملًا ولا هو دليل موسوعي، فهو لا يستعرض تاريخ دلتا النيل بشكل خطّي أو متجانس أو منبسط؛ ولا هو يقص حكايات كل الأماكن والناس والقصص من الدلتا أو المرتبطة بها. بدلًا من استهداف الشمول والتمام، يقدّم مؤلفو فصوله الثمانية عشر تواريخًا لأراضي مصر الشمالية هذه. وهذه القصص مجتمعةً تسلط الضوء على الأهمية التاريخية والشبكات المعقدة لمساحات وفضاءات هذه الدلتا المتغيرة عبر الزمن، وتواريخها الخاصة بالاستعمار في حقبه المختلفة [...]على مدار أكثر من سبعة آلاف سنة.» (ص ٤٥).

في المقدمة المكتوبة بمحبة وتمكُّن، تقدم المُحررة كاترين بلوّا دلتا النيل للقُرّاء، وقبل ذلك تقدّم لأجندة بحثية يتبناها الكتاب ويُدافع عنها. لنبدأ بالترتيب العكسي في تفصيل هذين الجانبين.

أولاً، عن الأجندة البحثية التي يدفع بها كتاب «دلتا النيل»، تقول المُحررة إنّ هذا هو العمل الأول الذي يتقصّى تاريخ الدلتا عبر العصور، منذ مصر القديمة وما قبلها وحتى التاريخ الحديث، ودافع ذلك أن الدلتا لم يلتفت إليها مؤرخو العصور القديمة إلا مؤخرًا (ص ٤)، وأنّ التاريخ المصري المُمتد في نظر المؤرخين والآثاريين ليس ممتدًا على صفحات الكتب ومقالات الدوريات، وإنما هو متقطع إلى فترات قسمتها بلوّا – في قراءتها لهذه العلّة الإبستمولوجية والمنهجية في تحقيب التاريخ المصري – إلى قسمين: فترة تنتمي إلى خيال «مشرقي» ما – سواء حقبة مصر القديمة، أو تاريخ الهكسوس في الدلتا أو تاريخ الاحتلال الفارسي أو الحقب الإسلامية أو القرون العثمانية ما قبل الحديثة –، وفترة تنتمي إلى خيال «أوروبي» بمعنى من المعاني – سواء حقبة الإسكندر المقدوني أو الحقبة الرومانية أو البيزنطية، أو الحملة الفرنسية أو الاحتلال الإنجليزي – (ص ٦). هذا التقسيم المعرفي – الذي أدّى إلى خط خطوط غائرة ضمنية أكثر منها صريحة في أذهان الباحثات والباحثين المهمومات والمهمومين بمختلف الحقب التاريخية المصرية – كان له أثره على إدراك الدلتا كوحدة مكانية مُستحقة للتأريخ، لا سيما مع الانشغال أولًا بالثنائية الضمنية «مشرقي/ أوروبي» التي لها من قدرة على بث التشظّي والتشتت. فإذا الأذهان غفلت عن استمرارية المكان في الزمن، جنحت الأقلام إلى الانشغال بتواريخ أدقّ وأقل إدراكًا للمكان وأكثر انشغالًا بالسيرورات والأحداث التاريخية التي كان مسرحَها. ثم إن المُحررة تشير إلى نقطة عمياء مُزمنة وقع فيها المؤرخون وأماط اللثام عنها مؤخرًا الآثاريون: التحقيب بالفتح الإسلامي لمصر، وكأن ما قبله منقطع الصلة بما بعده (ص ٩)، فكان الانشغال بتدهور مُتصوّر في ثغر الإسكندرية مثلًا (وهو ما دحضته الأدلة المادية التي جمعها الآثاريون) على حساب «رؤية» المؤرخ لمكان ممتد يستحق التأريخ. والأمر نفسه ينسحب على الدلتا كاملة. إذن، لعلاج هذا القصور، جمع الكتاب في فصوله إضاءات من حقول معرفية مختلفة سُلطت على الدلتا في تاريخها الطويل، من علم الآثار إلى المصريات والتاريخ القديم والتاريخ الحديث، وتاريخ الفن والجغرافيا وغيرها من الاختصاصات، فكشف هذا التجاور بين الحقول المعرفية (multidisciplinarity) عن سِجِلّ جديد لهذه المنطقة. لكن قبل ذلك، ما هي الدلتا وكيف تؤطرها لنا بلوّا؟ هنا ننتقل إلى النقطة الثانية.

ثانياً، بعد ذلك المقال المهم داخل المقدمة من جهة تاريخ العلم وفلسفته – وقد قدّم لأسباب وحلول التأريخ للدلتا – انتقلت المُحررة إلى مسألة أهم، مسألة دون تقديمها تبقى حيرةُ القراء كبيرةً وهم بصدد الاقتراب من هذا الكتاب الذي يطمح إلى تقديم تاريخ ممتدّ للدلتا (وهو طموح كبير): ما هي الدلتا وكيف لنا أن نفهمها عبر كل تلك القرون والألفيات، من عصور ما قبل الأسرات وحتى الوقت الراهن؟

هنا، تنتقي المقدمة إطارين متجاورين «للنظر» إلى الدلتا كتاريخ. الأول هو إطار «تاريخ الماء» (ص ١٠ – ٢٨)، والثاني هو إطار

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net

«الجغرافيات المُتخيلة» للدلتا (ص ٢٨ – ٤٥). في الإطار الأول، تُركّز المُحررة بالقدر المستحق على العنصر الإيكولوجي الطبيعي المكوّن للدلتا بالقدر الذي لا يستقيم معه تقديمها كموضوع للتأريخ دون تفصيله، أي الماء وحركة النهر والعلاقة بالبحر؛ وهي هنا تنتقل من حقبة إلى أخرى على النحو المعهود في التأريخ لمصر، من تاريخ قديم، مرورًا بالتاريخ الإسلامي وحتى التاريخ الحديث والتاريخ المُعاصر. وفي هذا الشِق من المقدمة، تتحرى الكتابة الموسوعية الساعية إلى الإلمام بالموضوع. أما الإطار الثاني فهو الأهمّ في تقديري لأغراض توضيح منهجية الكتاب لأنه يُتيح للقراء وكل مُقبِل ومُقبِلة على التأريخ للدلتا أو دراستها من أية زاوية كانت تتصل بالعلوم الاجتماعية والإنسانيات، أن يتسلّحوا بفهم ما يمكن وصفه بـ «الخيال السوسيولوجي–التاريخي» عن هذه المنطقة لو تحرّينا فهمًا سوسيولوجيًّا لتاريخها، أو بـ «اقترابات» (approaches) استخدمها المؤرخون والكُتاب والمفكرون ممن انشغلوا بالدلتا بأشكال مختلفة. هنا، نحن بصدد ثلاث صور: الأولى هي الخيال التاريخي عن الدلتا كـ «رحِم حاضن»، أي كفضاء للتجدد والانبعاث والمقاومة، وهنا تحضر أسطورة إيزيس وأوزوريس ويحضر معها تصور المستشرقين اللاحقين أهلَ الدلتا أناسا عدوانيين مُعاندين (ص ٣٢–٣٣)؛ ومن ثم، تحضر هذه الصورة في خيال الباحثين، من مؤرخين وجغرافيين وآثاريين وغيرهم. الصورة الثانية صورة «الدلتا كمساحة قابلة للقياس» على الخريطة، فهي مُثلثة (كلمة «دلتا» نفسها تحيل إلى المثلث)، خاضعة هي وأهلها لحسابات المديرين والحُكام والإقطاعيين والمحتلين عبر العصور، كوسيلة تقنية لفرض السيطرة واستخراج القيمة، وكأن الدلتا عند القدماء والمحدثين قد أُطرّت بخيال حسابي تلك هي غايته – تدعو المُحررة جمهرة العلماء إلى النظر بعين ناقدة إلى هكذا تصورات عن الدلتا لدى الخوض في مشاريعهم البحثية وكتابتها. الصورة الخيالية الثالثة التي تقدمها بلوّا للقراء – لتعينهم على هضم واستيعاب الانشغال بالدلتا كوحدة تحليل في هذا الكتاب وفي مشاريع القراء البحثية والمعرفية على اختلافها – هي صورة «القفل والمفتاح»، أو «الدلتا كتقاطع ومعبر على طريق الاستعمار» (ص ٣٩ – ٤٥). وبهذه الصورة الثالثة، تكتمل ثلاثية «خيال الباحثين عن الدلتا» في نظر المُحررة، فهم أولًا يعتبرون الدلتا مكانًا للتجدد والانبعاث والمقاومة، في إطار مكان مُثلث مُقدّر محسوب، وراءه أجندة جيوستراتيجية (في كتابات سترابو مثالٌ، وكذلك في كتابات المقريزي وفي وصف مصر، ثم في الدراسات التاريخية غير الناقدة من بعد ذلك)؛ ثم إنهم أخيراً ينزعون إلى رؤيتها بما هو حولها، وهذه هي الصورة الخيالية الثالثة: الدلتا كمعبر، كمكان انتقالي من نقطة مركزية إلى أخرى، وكأن الإسكندرية بوابة والقاهرة البوابة المقابلة لها، وبينهما مكان عبور. وهذه الصورة – بقدر ما تمكث في خيال الدارسين للدلتا دون إدراكهم لها كوحدة تحليل لها الجدارة – خدمت مصالح الكُتاب الاستعماريين في عصر التنوير (ص ٤١). وهذه الصورة الأخيرة عند بلوّا لها مُقابل في المدخل المنهجي للمؤرخ الإنجليزي كريس ويكام؛ الذي حاجج في كتابه الحمار والسفينة بأن فهم تاريخ التجارة المتوسطية في العصور الوسطى يقتضي درس التجارة الداخلية التي تطوّرت وتعقّدت عضويًا، فتمخضت عن تبادل تجاري بين الدول والأقاليم المتوسطية، فالحمار نقل البضائع عبر قرى الدلتا ومراكزها قبل أن تبحر بها السفن في المتوسط انطلاقًا من دمياط أو رشيد أو الإسكندرية (ويكام ٢٠٢٣).

خلاصة القول إذن أن هذه المقدمة المتفردة تتيح للقراء والباحثين مادة فكرية ثرية تمكّنهم من إعادة النظر إلى الدلتا ورؤيتها في ضوء جديد، يمكّن من مُتابعة هذه الأجندة البحثية الطموحة للتأريخ لها في تاريخها المُمتد من بعد صدور هذا الكتاب الرائد.

أما فصول الكتاب – وسأقدّم بعضها هنا بإيجاز –، فأرى فيها أمرين. الأول أنها تفي بوعد كاترين بلوّا في مقدمتها بأن هذا المؤلَّف الجماعي ليس تاريخًا خطيًا كاملًا للدلتا، له بداية ومنتصف ونهاية، من عصور ما قبل التاريخ إلى التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر، وأنه «إضاءات» متنوعة أثرها، كما أسلفنا، هو إنارة «الأهمية التاريخية والشبكات المعقدة لمساحات وفضاءات هذه الدلتا المتغيرة عبر الزمن، وتواريخها الخاصة بالاستعمار في حقبه المختلفة» (ص ٤٥). الأمر الثاني هو أن الفصول، مع عدم تحرّيها التناسق في الفترات الزمنية التي تغطّيها أو النطاق المكاني الذي تتناوله (كأن يغطّي كل فصل نطاقًا زمنيًا موحدًا أو أن يتطرق إلى مديرية أو مدينة أو قرية ما بمنطق موحّد)، تقدم الدلتا عبر عدّة مرايا، وكأن كلًا منها قصّة في متتالية قصصية – لا مجموعة قصص قصيرة – تخرج منها كقارئ بما تشاء، مع ضرورة ذِكر أن ما يستخرج منها هو صورة جديدة عن هذه المنطقة كوحدة مكانية للتأريخ، وأن بين الفصول خيطا يربطها بعضها ببعضها الآخر، في تناغم وتكامل حُر، بلا شطط في تأطير الكتاب وكأنه جامع مانع.

بعد المقدمة، يبدأ الكتاب (الفصل الثاني في فهرس محتوياته) بفصل من المُحررة عن الأسماء التي سُميت بها الدلتا، والقصد أن وراء كل «تسمية» قصّة وشُرفة جديدة يمكن أن تُرى منها من منظور من أطلق عليها هذا الاسم أو ذلك. هناك أسماء أطلقها أهل الدلتا عليها، وهي إذن محلية تشير – فيما تشير إليه – إلى سبل معاشهم وبيئاتهم؛ وهناك أسماء أطلقها عليها المستعمرون والإمبراطوريات، من يونان ورومان وغيرهم، تشير إلى مكانتها كمعبر أو مورد أو خيال منفصل عن تصوّرات أهلها، أو وحدة داخل إمبراطورية.

وعلى نفس النهج الإبستمولوجي (أو المعرفي) للتعامل مع الدلتا كحقل تاريخي، جاء فصل عابر لمصر المملوكية والحقبة العثمانية قبل الحديثة والفترة المبكرة من الحداثة، للمؤرخة لوسيل هاجيه (الفصل الخامس عشر)، ونرى فيه بصمات تاريخ المعرفة الجغرافية وتاريخ العِلم؛ وتستنطق مؤلفته خرائط الدلتا التي رسمها أوروبيون بين سنة ١٢٠٠ وسنة ١٨٠٠، وهي خرائط «ترسم مجتمعةً صورة [...] لبعض المعرفة المُكتسبة عن شمال مصر» عبر الفترة التي يغطيها الفصل (ص ٤٩٣). وهذه الصورة تشمل لمحات من تاريخ الدلتا ورسامي الخرائط ومن عاونهم، وتشمل لحظات مفصلية كبرى مثل الحملة الفرنسية في ختام القرن الثامن عشر، وصعود بريطانيا عالميًا وإقبال رجالها على الاستكشاف ورسم خرائط أدق، وهلم جرا. ومن باب المدخل الإبستمولوجي أيضًا، يمكن قراءة فصل راشيل مايرز عن تاريخ كُتب الرحالة الغربيين التي ذكرت الدلتا بين ١٨٧٠ و١٩١٤ (الفصل السادس عشر)، وفيه تبرز فكرة مقدمة الكتاب عن خيال «المفتاح والقفل»، أو التعامل مع الدلتا كمعبر لا كفضاء مكاني له تفرّده ويستحق التأريخ.

وعن موضوع الدلتا كفضاء محوره البيئي هو الماء، احتوى الكتاب على الأقل على دراستين. الدراسة الأولى بقلم إيزابيل هيري عن مياه الإسكندرية منذ تأسست وحتى الفتح العربي، قرونا قبل من مد ترعة المحمودية إلى المدينة في القرن التاسع عشر (الفصل العاشر). والدراسة الثانية بقلم واكاكو كوماكورا عن إدارة تدفق ماء النيل في البحيرة من السجلات المملوكية والعثمانية (الفصل الرابع عشر). عند هيري – المعمارية الآثارية – نقف على زمام الحضر والمدينة وأعمال البنية التحتية المعقدة، وعند كوماكورا – المؤرخة الاقتصادية لمصر المملوكية – نرى التاريخ الإداري–الاجتماعي للماء في الدلتا من باب آليات إدارته المشتركة بين الفلاحين والسلطة.

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net

ومع تلمّس فصول كثيرة للتاريخ الاجتماعي للناس عبر الدلتا عبر العصور، ركّز بعضها أكثر على التكوين الاجتماعي. في فصل صبحي بودربالة، مؤرخ التاريخ الإسلامي في جامعة تونس (الفصل الحادي عشر)، نقترب من حركة القبائل العربية وتوطّنها في مناطق شرق الدلتا في القرن الأول للفتح الإسلامي، إذ انتقل إليها البعض من الفسطاط، ونُقل إليها البعض الآخر من الهلال الخصيب، على خلفية ثورة شعبية ضد السياسة المالية للدولة العباسية. وعلى نطاق زمني أوسع (من القرن الخامس إلى التاسع، مرورًا بالفتح الإسلامي)، يقدم رامز بطرس – المعماري ومؤرخ القرون الوسطى – ثقافة عبادة القديسين في الدلتا كظاهرة وثيقة الصلة بأسباب اجتماعية واقتصادية بقدر ما كانت متصلة بالتحولات العقائدية والدينية. وبالتركيز على التكوين السكّاني، قدم عالم المصريات والآثاري سلڤان دينان في الفصل الثامن تاريخًا طوليًا لموقع كوم أبو بلو الأثري (في زمام محافظة البحيرة) من عهد الدولة القديمة وحتى القرن العاشر الميلادي، متتبعًا الأدلة المادية لتاريخ التوطّن به ومكانته على خرائط شبكات التجارة المتعاقبة عبر العصور، بالاستناد إلى مكتشفات البعثات الآثارية، ومُقدمًا بذلك خلاصات هامة تشهد على أهمية الحوار بين علم الآثار والتاريخ، على اختلاف المناهج البحثية بين هذين الحقلين الواسعين.

ليس المذكور هنا إلا تقريرا شديد الإيجاز سعيت فيه إلى التدليل على كيفية تعامل الكتاب مع تاريخ الدلتا الطويل – مُسلحًا بتنوّع الحقول المعرفية وتجاورها والتكامل بين الفصول –، وقد بينت فيه كيف للقراء أن يخرجوا منه ربما – بغض النظر عن الثراء الشديد لكل فصل من الفصول منفردًا – بمشهد أكبر ونقاط مقارنة مثيرة للتفكير والتأمل وللأسئلة المعرفية والبحثية، للتعلم من هذا المنجز الفريد والبناء عليه.

بقي لي ذِكر مأخذ على الكتاب، يتصل بالمنهج والنطاق: إذا كان يدافع عن فكرة التركيز على الدلتا كمكان نرى على مسرحه الاتصال بين الحقب الزمنية وما يستحق أن نراعيه في الكتابة عنه، فما الذي نفقده إذا رفضنا الاعتراف بمركزية لحظات تغيير كبرى وسريعة، مثل أن نقف عند ما قبل وما بعد الاحتلال الإنجليزي في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر، أو أن نشتبك مع سؤال الفتح الإسلامي كموضوع للتأريخ؟ رأيي الذي أستقيه من منهج الكتاب في تجاور الحقول المعرفية ومن مرونته مع التحقيب وتنويعه، أن الاهتمام بمكان أو ظاهرة أو سؤال ما دأب المؤرخون على إهماله، لا يعني بالضرورة اعتماده (أي السؤال أو الظاهرة أو المكان) موضوعًا حصريًا للأجندة البحثية، وإلا وقعنا في فخ الدفع بحتمية جديدة تحل محل حتمية قديمة، كأن ننشغل بالمكان على حساب الانشغال بالظاهرة. هو توازن صعب، لكن فضل مثل هذا الكتاب – من حيث لفت نظرنا إلى موضوع تاريخي قلّ الانشغال به – أنه يضيء للباحثات والباحثين مناطق غفل التأريخ عنها من حيث الممارسة وحان وقت الالتفات إليها.

أختتم هذا العرض ببعض الدروس المستفادة من قراءة هذا العمل. أولًا، ثمة فيه درس عن كيفية تضفير ونسج كتاب مُحرَّر متماسك يثير شغف القارئ. وهذا التماسك يبدأ بالمقدمة، وهي بالغة الأهمية لأنها ترسم توقعات القراء وتخططها، وتقدم إطارًا ودليلًا لفهم العلاقات بين الفصول والقضايا التي تغطيها. وفي الفصول نفسها، نرى انتباه مؤلفيها إلى إسهامات بعضهم البعض ومساحة الإسهام المعرفي لكل منهم إلى جوار الفصول الأخرى. ولعل الأفضل أن يبدأ تحرّي هذا التماسك والانتباه لوحدة الكتاب مبكرًا، من مرحلة تخطيط الورش والمؤتمرات البحثية؛ بحيث يكون نتاجها – إذا كان ثمة تصور بأنه سيكون كتابًا مُحررًا – متصلًا هذا الاتصال، يسدي في مجمله إلى العلم والقراء خدمة أكبر من تلك التي تسديها الفصول منفردة. ثانيًا، تجاور العلوم كاشف وهام بقدر البينية (interdisciplinarity). نحن هنا بصدد عمل تحرّى هذه المنهجية التعددية إطارًا لمعرفة ما لا نعرفه لولا التجاور المذكور، للإجابة عن سؤال بحثي بالغ الطموح والتفرد: ما هي الدلتا في تاريخها الممتد عبر سبعة آلاف سنة وكيف يمكن لمطاردة هذا التاريخ أن تكشف لنا كمؤرخين ودارسين لمصر من مختلف جوانب الدرس والسعي المعرفي عن أوجه قصور في عملنا؟ وقد رأيت عبر الكتاب كيف أن تجاور العلوم بين فصوله (بل وتجاورها في الفصل الواحد أحيانًا) يقدم إضاءات تمكّن من عقد المقارنات بين الحقب التاريخية المختلفة ونحن بصدد تاريخ الدلتا، وبين المكان الواحد (البحيرة مثلًا عبر فصلين أو ثلاثة فصول) بعدسات حقول معرفية مختلفة.

الدرس الثالث والأخير هو تحرّي الواقعية والتواضع في الإجابة على الأسئلة الكبيرة، بحيث لا نقتصر في الأسئلة ونكتفي بإعادة طرح القديم المأمون منها، ولا يأخذنا الطموح إلى أرض هشّة فيها من الادعاء والافتراضات ما هو أكثر بكثير من الأدلة والمناقشة الموضوعية. كان الإطار الذي ساعد فريق عمل هذا الكتاب على إمساك العصا من المنتصف بقدر كبير من الإحكام، هو إطار يمكن أن نسميه «مدّ حبل الطموح حتى النقطة التي تبلغها سواعدنا، لا تلك التي تراها أعيننا في الأفق ولا نعرف إذا كنا سنبلغها أم لا».

عمرو خيري
المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (Ifao، القاهرة)
مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية (Cédej، القاهرة)

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net